

محمد بن أبي عامر «المنصور»

فارس كل

قصة فخر

رميت بنفسي هول كل كريهة
وما صاحبي الا جنان مشيع ،
واني لزجاء الجيوش الى الوغى
لسدت' بنفسي اهل كل سيادة
وما شدت' بنياناً ، ولكن زيادة
رفعنا المعالي بالعوالي حديثة
وخاطرت ، والحرء الكريم مغاطر'
واسمر خطي ، وأبيض باتر
أسود تلاقيها أسود خوادر
وكاثرت حتى لم أجد من أكاثر
على ما بنى عبدالمليك وعامر
وأورثناها في القديم معافر

محمد بن أبي عامر
المنصور

«المنصور» محمد بن أبي عامر

شخصية نادرة عظيمة ، من الشخصيات العربية الفذة ، التي كان لها في تاريخ أمة العرب في الأندلس دور بارز وضّاء يعتبر بعد عبدالرحمن الداخل ، والخليفة عبدالرحمن الناظر في المرتبة الثالثة من هذا الدور العظيم في تاريخ أمتنا العربية التي برزت فيه على مسرح الأحداث في القرون الوسطى ، حين كان العالم بأجمعه لا يزال يغط في سبات الجهل العميق ، والخرافات القاتلة ، والظلم القاسي ، والاستبداد والاستعباد البغيضين .

كان العرب في تلك الحقبة من حقب الزمان يرفعون مشعل النور الوضاء ليسطع نوره فيعم المشرق والمغرب فتسير على هديه شعوب أوربا التي كلفها القدر أن تتسلم مشعل العرب الذي أضأوه بعرق جباههم السمر ، وعمت أيمانهم الكبير يحمل رسالة الحضارة الى كل الشعوب (لا فرق بين لون ولون أو صنف وصنف) .

وكان على الأوروبيين أن يحافظوا على استمرار اضاءة شعلة الحضارة ، فكان أن استمرت الشعلة فعم خيرها الكون بأجمعه في عصرنا هذا .

واذا كان عالمنا الحديث هذا بتقدمه في جميع المجالات الزراعية ، والعلمية ، والفلسفية ، والعلوم التكنولوجية وغيرها يذكر بغير ، فانما الخير هذا يجب أن يذكر لأولئك الذين قدموا لهم مشعلهم هذا ليهدوا العالم الى سواء السبيل .

□ القبس الأخير :

كان الحاجب محمد بن أبي عامر آخر قبس من تلك الشعلة التي كانت تسطع بضياؤها فوق أرض الأندلس . فقدم لها أسباب الاستمرار والدوام بقوة وعزيمة مؤمنة واثقة قوية طوال عشرين سنة ، واتبع في هذا السبيل جميع الطرق والأساليب والسبل ، لا تلين له قناة ولا يثبط من عزيمته عائق . فكان القاضي العادل ، والقائد الشجاع الذي لا يقهر ، والمجاهد المؤمن ، والبانى العظيم ، والرجل الصلب الجبار الذي لا تلين له قناة ولا يكسر رمحه شجاع ، ولا يلوي سيفه محارب .

كان يعتقد أن الغاية يجب أن يتبع في سبيلها كل الطرق الشرعية وغير الشرعية ، الشريفة والدنيئة ، فالواسطة لتحقيق غايته لا يهمه أن تكون مصادقة عدو قديم أو قتل صديق حميم ، لا يهمه أن يسير الى غايته تلك في طريق مههد مرصوف خال من كل عائق أو مليء بالعوائق ، فهو يستطيع بما أوتي من موهبة فذة وفكر ثاقب ، وبصيرة نافذة ، أن يذلل كل صعب ، وأن يمتطي كل مركب ، لا يمل الانتظار اذا طال ، واذا برق له بارق من أمل اندفع الى تحقيقه بقوة وصلابة وعزيمة قادرة لا تلين .

هكذا كان المنصور محمد بن أبي عامر الذي استطاع أن يصل الى أعلى مرتبة وأسمى مكان في الأندلس . لقد سعى لتحقيق أحلام كانت تراوده منذ الصغر بتولي حكم الأندلس ، ولطالما كان يبت أفكاره تلك بين أقرانه وأترابه فكان منهم من يهزأ منه ومنهم من ينظر اليه في اشفاق .

لم تكن أسرة محمد بن أبي عامر من أغنى الأسر العربية بالأندلس ، فقد كانت هناك أسر كثيرة تفوق أسرته غنا وجاهاً وقوة وبروزاً على صعيد الشهرة والسياسة . ولم يكن محمد بن أبي عامر هو الوحيد بسين تلك الآلاف من أبناء الأسر العربية في الأندلس يتقن القرآن والفقه واللغة في جامع قرطبة ، ولكن محمد بن أبي عامر كان الوحيد الذي أوتي أفكار الرجال ، وصلابة الأبطال ، وعزيمة الجبابرة .

كان وحده طرازاً خاصاً فريداً في ذلك المجتمع المتنوع المتشابك في الأندلس . كان وحده يجمع بين المتناقضات العديدة بتناسق فريد قل مثيله بين قادة الأمم وحكماء الشعوب ، كان الناعم الخشن ، اللين الصلب ، الضاحك العابس ، الجاد الهازل . كان يجمع في شخصه متناقضات « دون كيشوتية » عجيبة . كما استطاع أن يجعل من ميكافيللي – صاحب نظرية « الغاية تسوغ الوسيلة » المشهورة – إمامه في ممارساته .

لقد استطاع الحاجب المنصور ، بشخصيته الفذة تلك أن يتبوأ أعلى منصب في الأندلس ، ويتربع على قمة المجد هناك ما يزيد على العشرين من السنين .

انني أحاول في هذه العجالة أن ألقى خيطاً من الضوء على تاريخ رجل عربي من رجال الأندلس الأفاضل استطاع أن يجعل من الأندلس خلال فترة حكمه لها أعظم دولة في ذلك الجزء من العالم ، فيضاهي بها دولة العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة ! بل امتد به طموحه الى التفكير بغزو دول المشرق العربي ! ولكن حكم الحاجب المنصور – رغم قوته ، وازدهاره – كان يحمل – نتيجة لسياسته الفريدة بدور الدمار للحكم العربي في الأندلس واستطاعت هذه البذور أن تنبت ، وتنمو حتى آتت نتائجها في عصر ملوك الطوائف ، وكان القضاء على الحكم العربي في الأندلس .

□ تمهيد :

كانت الأندلس في عهد الحكم المستنصر الخليفة الأموي قبله العالم الغربي في ذلك الوقت ، وكانت المحج الذي يستهوي عقول طلاب العلم والمعرفة ، وقلوب طالبي المتعة والمجد والشهرة ، فقد بلغت قمة الحضارة ، وسطع بريق ضيائها في جميع الأرجاء ، وكانت تعج بمختلف الصور والأشكال ، كانت الغيد الحسن تمرح في قصور الأندلس المترفة بكل وسائل الراحة والانشراح . وكانت قصور الخلفاء تجمع بين ترف العيش ونعومة الحياة . فالرزق هين ميسور ، والمجد شامخ عال . والحكم المستنصر كان ملجأ ملوك اسبانيا النصراري المتناحرين ، وقاضياً يلجأون اليه لحل خلافاتهم ، منهم من يطلب عونه على أخ اغتصب الملك منه ، ومنهم من يرجو أن يشفع له عند ملك ليعيده الى مركز فقده .

وكان (١) الحكم المستنصر دودة كتب – ودود الكتب من الناس – وان أفادوا جداً فيما اتجهوا اليه ، قلما يكونون حكماء عظماء ، فان منصب الملك لا يهيء لصاحبه أن يبلغ الذروة في العلم .

لقد انغمس الحكم في القراءة فملكته عليه ، وامتلأت خزائنه بالكتب حتى بلغت نحو أربع مائة ألف مجلد قرأها جميعاً وعلق عليها في حواشيها .

في هذه الفترة المجيدة من تاريخ الأندلس العربي ولد محمد بن أبي عامر وفي هذا الجو المهيئ لكل أسباب الارتقاء والتقدم لكل ذي طموح نشأ ابن أبي عامر .

□ مولده :

ولد (٢) محمد بن أبي عامر سنة ٣٢٨ هـ - ٩٤٠ م بالجزيرة الخضراء ، وهو من أسرة عربية يمنية قديمة الأصل تنسب الى قبيلة معافر اليمنية .

دخل جده الى الأندلس مع طارق بن زياد ، وأظهر شجاعة في بعض العمليات العسكرية ، فكوفئ باقطاعات جليلة من بلدة طرش (٣) التي تقع على وادي آره شمال شرقي الجزيرة الخضراء .

وكانت والدته أيضاً من أسرة عربية تعرف ببني البرطال .

كان والده من رجال العلم والدين ، أدى فريضة الحج ومات في طريق عودته بمدينة طرابلس (٤) في ليبيا .

□ نشأته :

بدأ حياته طالباً مغموراً في جامع قرطبة ، حيث كان أبوه فيه فقيهاً وقد نشأ المنصور نشأة حسنة . كان مثالا رائئاً لما يمكن أن يعمل الذكاء وتحققه الشجاعة والاثرة في تلك المملكة الاسلامية التي كانت تتلأأ في تلك العصور المظلمة كما تتلأأ الجوهرة في جيد عادة حسناء .

وكان الطريق ممهدا للعبقريين كيفما كانت بدايتهم ، فاندفع المنصور ليحقق تلك الدوافع الخفية التي كانت تطرق خياله فتحرمه لذة الرقاد .

حدث أحد أترابه ويدعى موسى بن عزرون قال : « اجتمعنا يوماً في متنزه لنا بجهة الناعورة بقرطبة ، ومعنا ابن أبي عامر ، وهو في حديثه ، وابن عمه عمر بن عقلاجة ، والكاتب ابن المارعزي ، ورجل يعرف بابن الحسن من جهة مالقة .

فقال المنصور : « لا بد لي أن أملك الأندلس ، وأقود العسكر ، وينفذ حكمي فيها ! ونحن نضحك منه ، ونهزأ به ، وقال : « تمنوا علي » . فقال ابن عمه : « نتمنى أن نتولى المدينة » ، وقال ابن المارعزي : « نتمنى أن نتولى السوق » ، وقال ابن الحسن : « نتمنى أن توليني القضاء بجهتي ، فاني أحب التين ، حتى أتشفى من أكل التين » . قال موسى بن عزرون : ثم التفت المنصور الي وقال : « تمن أنت » ، فأسمعتة كلاماً قبيحاً : فلم يك الا أن صار الملك اليه ، فولى ابن عمه المدينة وبلغه أمله ، وولى ابن المارعزي السوق ، وكتب لابن الحسن بالقضاء عساه يشبع التين ، وأرغمني أنا مالا عظيماً أجحفني وأفقرني لقبيح ماكنت جئت به » (٥) .

أما القصة الثانية التي تدل أيضاً على طموح هذا الشاب الفذ في مجتمع قرطبة فتقول :

« كان المنصور باثناً ليلة مع أحد اخوانه في غرفة ، فرقد رفيقه ، ودينه ، ولم يرقد هو قلقاً وسهراً فقال له صاحبه :

« يا هذا قد أضرتني هذه الليلة ؟ ! فقال المنصور : انني أتفكر في من يصلح أن يكون قاضياً للاندلس ، ولما استغرب صاحبه ذلك ، قال له : « يا هذا ! أنت أمير المؤمنين ؟ ! فقال له : « هو كذلك » .

ثم أخذوا يستعرضان القضاء حتى جاء ذكر أبي بكر بن يبقى بن زرب ، فلما طمأن المنصور نام وعندما تولى المنصور الملك ومات قاضي قرطبة اختار المنصور ابن زرب لهذا المنصب (٦) .

أتم المنصور دراسته في جامعة قرطبة ، وتتبع خطوات عمومته وخؤولته ، فقرأ الأدب واللغة على أبي علي القالي البغدادي ، وأبي بكر بن القوطية ، وقرأ الحديث على أبي بكر ابن معاوية القرشي وغيره .

واتخذ المنصور أول أمره (٧) دكاناً صغيراً بجانب قصر الخلافة يكتب فيه العرائض والالتماسات . وسرعان ما استهوى الناس بذكائه ومهارته .

كان الحاجب المنصور مثالا للذكاء الخارق . استهوى الناس برفيع أدبه وتواضعه ، وكريم عطائه ، ورقة احساسه ، ومساعدته للبائسين ، كما كان محباً للعلوم مشغوفاً بالأدب ، مشجعاً للعلم والعلماء ، والأدباء والشعراء (٨) وقد زحرت البلاد في عهده بطائفة من مشهوري العلماء ، والأدباء ، والشعراء . فانطلق اسمه ينساح في كل صوب فينتشر ويزداد انتشاراً فيمتاح مسامع السيدة صبح الزوجة البشكنسية المدللة للخليفة الأموي ، الذي تنطلق أوامره من قصره المنيّف فتخضع له هامات القوم ، وتنحني له رقاب العباد بالسمع والطاعة ، والقبول والايجاب .

كانت السيدة صبح في حاجة الى رجل يتولى شؤون ولدها الصغير عبدالرحمن ، وشؤون أملاكها الكثيرة . فطلبت هذه المدللة من زوجها الخليفة الذي أصدر أوامره لحاجبه جعفر بن عثمان المصحفي . وهنا تسنح الفرصة للقاضي محمد بن اسحق ليقدم هذا الشاب الطموح للحاجب جعفر ، وليقدمه جعفر بدوره للسيدة صبح فتتهلل لذلك ويصبح هذا الكاتب للعرائض والالتماسات وصياً على ابن الخليفة وأملاك أمه الكثيرة الطائلة .

لكن القدر لم يمهل هذا الوليد الصغير الا القليل من الوقت ليغيبه فلم يتغلغل مركز ابن أبي عامر ، بل تولى الوصاية على الولد الذي ولد توا للسيدة صبح ، والذي دعى هشاماً المؤيد (٩) .

تحول اعجاب السيدة صبح بابن أبي عامر الى استلطاف ثم الى حب ، والحب يفعل العجائب وخاصة في قلوب النساء الرقيقة العطوف .

وكان المنصور مثال الكرم والاخلاص والتفاني مع السيدة صبح . فقد بذل لها كل ماوقع تحت يده ، حتى أنه بنى لها قصرأ من الفضة حمله على رؤوس الغلمان الى قصرها . وبذلك نال حبها ، فطلبت من الحكم أن يرفع من شأنه ، فولاه أمانة دار السكة ، ثم ولاه

قضاء بعض النواحي بكورة ريّه ، ثم رقتاه الى الاشراف على أموال الزكاة والمواريث في اشبيلية ، وعلى ادارة الشرطة فيها .

ثم جعله وكيلا لولده هشام ولي العهد (١٠) سنة ٣٦٦ هـ (١١)

ويقول ابن عذاري (١٢) « قال الحكم يوماً لبعض ثقاته : ما الذي استتلف به هذا الفتى حرماناً حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن الا هذه الهدايا ، ولا يرضيهن الا ما أتاه ؟ ! انه لساحر عظيم وخادم لبيب ، واني لخائف على ما بيده » .

استمر ابن أبي عامر يترقى في سلم الوظائف ويزداد نبوغه حتى صار في عداد الوزراء في بداية عهد هشام . وهو في كل ذلك يفتدو الى الحاجب المصحفي ويتودد اليه ويدعي نصيحته .

وهنا تبتدىء حياته رجلاً سياسياً وادارياً كبيراً في الدولة .

□ خلافة هشام المؤيد :

تولى هشام الخلافة بعد موت أبيه الحكم في صفر سنة ٣٦٦ هـ وهو ابن احدى عشرة سنة وثمانية أشهر (١٣) .

كان الطريق أمام المنصور شاقاً طويلاً مليئاً بالخصوم والأعداء من داخل البلاد وخارجها ، وعليه أن يعمل بقوة . فهذه فرصته الذهبية .

لقد ثار الخلاف بعد موت الحكم بين صقالبة القصر من جهة ، وبين الحاجب جعفر المصحفي وابن أبي عامر من جهة ثانية . فقد اختار الصقالبة وكانوا من القوة بمكان بقيادة فائق المعروف بالنظامي صاحب البرد والطرز وجوذر صاحب الصافة والبيازرة ليكون اليهما أمر الغلمان الفحول خارج القصر (١٤) اختار الصقالبة عم هشام المؤيد ، المغيرة بن عبدالرحمن الناصر . وذلك نظراً لصغر سن هشام ، وعدم تمرسه بشؤون الحكم ولأنه ما زال يخضع لأمه والحاجب المنصور في كل شؤونه ، وبقي الحاجب جعفر المصحفي وابن أبي عامر على ولائهما لهشام المؤيد ، على أن هشاماً لم يكن له في الأمر شيء .

كان الصقالبة قد أخفوا موت الحكم ، ثم استدعوا المصحفي للتفاوض حول ولي العهد الجديد ، فأظهر لهم المصحفي القبول حول شخصية المغيرة بعد أن أعلموه بموت الخليفة الحكم . وكان قد أشار جوذر بقتل المصحفي لكن فائقاً لم يقبل .

بعد عودة الحاجب المصحفي طلب من محمد بن أبي عامر أن يذهب ليقتل المغيرة مرشح الصقالبة ففعل المنصور . وبذلك اعتلى هشام المؤيد عرش الخلافة الأموية بالأندلس وتم تشريد الصقالبة من القصر .

أخذ الجو يصفو بعد تولي هشام العرش وطرد الصقالبة من القصر ، وأخذ ابن أبي عامر يخطط بذهنه المتقد وعزيمته التي لاتلين للقفزة الكبرى والأخيرة في سبيل الاستيلاء على الحكم .

ونظراً لصغر سن الخليفة - كما قدمنا - فقد تولت أمه مع الحاجب المنصور تدبير سياسة الدولة ، وبذلك أتيح للمنصور أن يكون أقوى رجل في المملكة .

□ بين المنصور ورئيس الوزراء جعفر المصحفي :

كان أول خصوم المنصور الوزير الكبير المصحفي نفسه ، حيث كان المصحفي ينظر الى المنصور منافساً خطيراً له ، وكان المنصور يرى في المصحفي رجلاً يجب أن يزاح من الطريق ليتسلق المنصور الى مركز الوزارة .

بعد مقتل المغيرة انتهز ابن أبي عامر فرصة العداء التي حدثت بين المصحفي والصقالبة وأخذ يوقع بين الفريقين ، واستطاع بذلك أن يقضي على الصقالبة ويشتتهم ثم قبض على المصحفي وزجه في السجن ونسب اليه تهماً عديدة ، كان المصحفي شاعراً ، فأخذ يستعطف المنصور بالشعر من مثل قوله (١٥) :

اذ قادني نحوك الاذعان والندم	هبني أسأت فأين العفو والكرم
ترثي لشيخ نعاه عندك القلم	يا خير من مدت الأيدي اليه أما
ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا	بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر

فأجابه المنصور :

تبغي التكرم لما فاتك الكرم	يا جاهلاً بعدما زلت بك القدم
وقلما ينفع الاذعان والندم	ندمت اذ لم تعد مني بطائلة
ولو تشفع فيك العرب والعجم	نفسى اذا أحجمت ليست براجعة

وكان المنصور قد تركه مكبلاً في سجنه وكثيراً ما كان يأخذه في مواكبه مكبلاً زيادة في الاذلال ، وبقي المصحفي في سجنه بالمطبق بالزهراء حتى مات ، وقيل قتل خنقاً ، ومن بديع ما حفظ في نكته قوله :

وألزمت نفسي صبرها فاستمرت	صبرت على الأيام لما تولت
وللنفس بعد العز كيف استذلت !	فيا عجباً للقلب كيف اضطباره
فلما رأت صبري على الذل ذلت	وكانت على الأيام نفسي عزيزة
فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت	وقلت لها يا نفس موتي كريمة

ويروي ابن عذارى عن لسان كاتب المنصور محمد بن اسماعيل كيفية اخراج الصحفي من المطبق بعد موته عارياً الا من ثوب ممزق للسجّان يستر نصف جسده فقط ، وقد حمل على فردة باب ، ولم يحضر الدفن الا امام المسجد المكلف بالصلاة عليه .

☐ بين المنصور والقائد غالب أمير الثغور :

تحول المنصور بعد موت الصحفي الى أمير الثغور غالب الناصري ، وكان هذا الأمير قائداً شجاعاً محنكاً وكان المنصور قد تزوج ابنته لكسبه الى جانبه أيام نزاعه مع جعفر المصحفي ، ولم يقدم المنصور على مواجهته جزافاً ، بل استعان بفارس شجاع مثله وهو القائد «جعفر ابن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلس» ، وكان الخليفة الأموي الحكم ولاء المغرب . فلما استدعاه المنصور الى الأندلس ترك أخاه يحيى على المغرب وعبر العدو المغربية مصطحباً جيشه من البربر . فرحب المنصور بهم، وأطلق على هذه القوة الجديدة اسم « جند الحضرة » وأخذ يفتدق عليهم الأموال .

وهكذا صار جيش الدولة منقسماً الى قسمين :

- ١ - الجيش المرابط في الثغور ، وعليه القائد غالب الناصري .
- ٢ - الجيش المرابط في العاصمة قرطبة ، وعليه المنصور نفسه .

أغضبت سياسة المنصور المستبدة بكل شؤون الدولة العسكرية والإدارية القائد غالب، وساءه الحجر على الخليفة وإساءة معاملة الحاجب المصحفي، ولهذا أخذت العلاقات تفتقر بين الرجلين . وعندما رأى المنصور أنه قادر على منازلة القائد غالب ضرب ضربته الثانية واستطاع القضاء عليه ، ثم أكمل عمله الأخير بقتل القائد جعفر بن علي بن حمدون بعد أن أسكره . وهكذا تخلص المنصور من منافسيه وفق مبدأ « الغاية تسوغ الوسيلة » ولقب في ذلك الوقت (٣٧١ هـ - ٩٨١ م) بالمنصور، ودعي له على المنابر ، استيفاء لرسوم الملوك، وكانت الكتب تنفذ عنه (من الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر إلى ٠٠٠) وأخذ الوزراء بتقبيل يده ثم تابعهم بعد ذلك وجوه بني أمية ، فساوى بذلك الخليفة نفسه ، ثم استبد بالملك دون هشام المؤيد وحجر عليه حتى لم يعد له من الأمر شيء ، فقال المؤيد :

أليس من العجائب أن مثلي
وتملك باسمه الدنيا جميعاً
يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وما من ذاك شيء في يديه (١٦)

□ صفات المنصور :

لنخص بعض المؤرخين صفات هذا السياسي العامري تلخيصاً جميلاً بقوله :

« كان المنصور ، آية من آيات الله بالدهاء والمكر والسياسة ، عدا بالمصاحفة (أي أعوان الحاجب الصحفي) على الصقالبة حتى قتلهم ، ثم عدا بغالب على المصاحفة حتى قتلهم ، ثم عدا بجعفر بن الأندلس على غالب حتى استراح

منه ، ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه . ثم انفراد بنفسه ينادي صروف الدهر : هل من مبارز ؟ فلما لم يجده ، حمل الدهر على حكمه ، فانقاد له وساعده ، واستقام له أمره منفرداً بسابقة لا يشاركه فيها غيره (١٧) » .

□ جهاد المنصور ضد الممالك النصرانية في شمال اسبانيا :

بعد أن وطد المنصور أمره على عرش الأندلس وأصبح من القمة في مكان حصين ، رأى أن يدعم نفوذه بعمل يكسبه شرعية في الحكم وشعبية بين الناس ، وكان الجهاد هو سبيله لبلوغ ذلك .

كانت أولى غزواته تلك التي شنّها على برشلونة ، وقطالونيا ، فقد خرجت عساكره من العاصمة قرطبة وسارت في طريق البيرة وبسطه ومرسيه ، ثم اتجهت شمالاً الى الساحل الشرقي المطل على البحر المتوسط حتى بلغت برشلونة بعد شهرين تقريباً . فقلبت عاليها سافلها ولم يجرؤ حاكمها بريل الثاني على مواجهة المنصور . ورغم أن المنصور لم يكن رجل حرب فانه قاد الجيش في أكثر من ٥٢ غزوة انتصر فيها جميعاً ، وكان يجمع الغبار المالح على وجهه وثيابه في كل غزوة حتى تجمعت لديه صرة كبيرة أوصى بدفنها معه عند موته .

ومن لطيف ما حفظ لنا « النباهي » (١٨) في كتابه (تاريخ قضاة الأندلس) خطط المنصور العسكرية وذلك أنه في إحدى غزواته المسماة بغزوة (أجريبره) أحاط الروم بجيشه وقتلوا عدداً من أصحابه ، فاستعمل المنصور الحيلة ، وذلك بأن نقل خيامه الى رأس جبل مشرف على الروم فظن هؤلاء أن المسلمين قد جيّشوا جيشاً كبيراً ، فدخلهم الرعب وهربوا وانتصر المنصور . ثم كتب بعد ذلك الى من هرب من جيشه أثناء القتال كتاباً ومن فصوله ما يلي :

« وكثيراً ما فرط من قولكم ، وسبق من عزمكم ، انكم تجهلون قتال المعقل والحصون ، وتشتاقون ملاقات الرجال على العجول . فحين جاءكم شانجه بالأمنية ، وقاتلكم بالشرطية ، وظهرت لكم رعدة الطائفة النصرانية ، انكرتم ما عرفتم ، ونفرتم ما ألفتم ، حتى فررتم فرار اليعافير من أساد الفيل ، وأجفلتم اجفال الرئال من المقتنصين ! فالحقتم العار بأنفسكم ، بعد اختياري لكم ، وأطوqتم الشنار على أعناقكم ، وضيعتم حرماqكم ، واخضرتم دمنكم ، فلا نعمتي رعيتم ، ولا تزييني حفظتم ، ولا وجودكم أبقيتم ، ولا غضب الله ورسوله اqقيتم . . . الخ » .

وكان في إحدى غزواته أيضاً يراقب سير المعركة فلم يشعر الا وجنوده يتراكمضون منهزمين ، فما كان منه الا أن رمى قلنسوته عن رأسه وتجرد من درعه وجلس على الأرض مصمماً على الموت دون الهزيمة . فما كان من الجند الا أن عادوا الى المعركة من جديد ، وكان النصر .

على أن أهم غزوات المنصور غزوته الثامنة والأربعون التي غزا بها مدينة

(شنت يا قب) « القديس يعقوب » أحد الحواريين الاثني عشر ومن أخص الناس بالسيد المسيح ، وكان النصراني يعتقدون أن هذا القديس كان يخرج للجنود المحاربين الاسبان في صورة ملاك بيده سيف ويمتطي فرساً أبيض ثم يأخذ في معاونتهم على قتال المسلمين (١٩) حتى يكتب لهم النصر .

لذا كان لهذه الغزوة معنى خاص في نظر المنصور ، لقد كان غرضه من غير شك تحطيم أسطورة سنتياجو الحربية ، وطعن الاسبان في صميم زعامتهم القومية والروحية .
وقد استولى المنصور بمساعدة الاسطول على المدينة ودمرها ودمر كنيساتها ، ولكنه حافظ على مقام القديس يعقوب ، احتراماً للتعاليم الاسلامية .

وكان من نتائج هذه الحملة وغيرها أن أكسبت المنصور شعبية كبيرة بين أبناء الأندلس وتغنى الشعراء بهذه المناسبات كما أخذ ملوك اسبانيا النصراني يتقربون اليه بالهدايا وبعث، برمند قومس غليسيه ابنته جارية للمنصور (٣٨٣ هـ) فأعتقها وتزوجها وأنجب منها ابنه المسمى عبدالرحمن شنجول (٢٠) .

□ عودة الى المغرب :

كانت سياسة المنصور امتداداً لسياسة عبدالرحمن الناصر والحكم المستنصر . وكانت تقوم هذه السياسة على الاحتفاظ بالعدوة المغربية تحت الحكم الأندلسي . بحيث تكون النقطة الفاصلة والخط الدفاعي الأمامي في مواجهة خطر مد سلطان الدولة الفاطمية .

وقد كان نجاح المنصور في سياسته باهراً بحيث خضع له المغرب بأكمله من سجاماسه (تافيلت) جنوباً سنة ٣٧٠ هـ الى ولايتي تلمسان وتاهرت شرقاً سنة ٣٧١ هـ (٢١) .

كان أول هجوم واجهه المنصور بالعدوة المغربية سنة ٣٦٩ هـ بقيادة الأمير بلقين بن زيري الصنهاجي ملك الدولة الزيرية في المغربين الأدنى والأوسط . ولكن المنصور استطاع أن يعد له بظاهر سبته جيشاً كبيراً ، بحيث لما جاء بلقين وأشرف على جيش المنصور هاله ما رأى وقال لأصحابه : « انما سبته حية ولت ذنبها حذائنا وفغرت فاهنا نحونا » وانصرف راجعاً الى وطنه .

وسنة ٣٧٥ (٢٢) أرسل المنصور جيشاً الى العدوة المغربية فحاصر الحسن بن قنون الشريف الحسني الذي زين له الفاطميون القيام بثورة في وجه الأندلس ، فتغلب المنصور عليه وقتله بعد أن أعطاه الأمان .

وكانت ثورة زيري بن عطيه المغراوي أخطر ثورة قامت على المنصور ، وقد كانت العلاقات طيبة بادىء الأمر ، الا أن سياسة المنصور القائمة على جمع السلطات كلها في يده اضطرت الزعيم المغربي للثورة بالمنصور بتشجيع من الدولة الفاطمية .

وقد أثار تصرف المنصور مع زيري بن عطية غداة زيارته للأندلس غضبه وذلك أنه منحه لقب وزير فاحتقر زيري هذا المنصب إلى درجة أنه صاح في وجه أحد رجاله حينما ناداه بالوزير قائلاً : « وزير من يا لكع ! ، لا والله إلا أمير ابن أمير وأعجباً لابن أبي عامر ومخرقة ، لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله ، وإن له منا ليوماً » .

وبعد ثورة الزعيم المغراوي أرسل له المنصور واضحاً الفتى بجيش كثيف فانهزم زيري بعد أن جرح سنة ٣٩٧ هـ وقد ثار بالمنصور ابن له يدعى عبدالله بسبب تقديم أخيه عبد الملك عليه ، ولكن المنصور تمكن منه وقتله .

لم يكن هدف الحاجب المنصور السيطرة فقط على الأندلس و إخضاع المغرب ، بل كان يهدف إلى الاستيلاء على المشرق العربي ويبدو ذلك واضحاً في شعره مثل قوله :

منع العين أن تذوق المناما	حبها أن ترى الصفا والمقاما
لي ديون بالشرق عند أناس	قد أحلّوا بالمشعرين الحراما
إن قضوها نالوا الأمانى ، والا	جعلوا دونها رقاباً وهاماً
عن قريب ترى خيول هشام	يبلغ النيل خطوها والشاماً

□ سياسة المنصور الداخلية :

قامت سياسة المنصور على تنحية العناصر العربية من الجيش ، وقد أخذ باسقاط أرزاق الاجناد وتسريحهم من الخدمة العسكرية ومصادرة اقطاعاتهم ، وبدلهم بصقاليته الذين اشتراهم ودعاهم العامريين ، وكون منهم جيشاً كبيراً ، واستعان أيضاً بالبربر الذين نقلهم من العدو المغربية ووهبهم اقطاعات كبيرة ومنحهم الرتب العالية .

كان المنصور شديداً جداً في معاقبة الخارجين على القانون حيث كان يقتل الرجل لأقل هفوة يرتكبها وبذلك ساد الأمن واستقر النظام ، ونعم الناس في ظل حكمه ، بالهدوء والاطمئنان .

قال شعله أمين سره الخاص : « لقد أفرط المنصور يوماً بالسهر ، وقلت له : « لقد أفرط مولانا في السهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ، وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب » فقال : يا شعله ، الملك لا ينام إذا نامت الرعية ، ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة » .

□ أعمال المنصور الادارية :

رغم تشدد المنصور وعدم تهاونه في الحكم كان واسع الصدر لطيف المعشر ، حدث أحمد بن محمد المقرئ التلمساني في كتابه (نفح الطيب) (٢٣) قال :

« أخذ رجل ثلاثة آلاف دينار من بيت المال لحاجة ماسة ، ولما قبض عليه المنصور وكبله بالحديد قال الرجل :

أواه أواه وكـم ذا أرى أكثر من تكراري أواه
ما لأمريء حول ولا قـوة الحـول والقـوة لله

فقال المنصور ردوه ، فلما ردوه قال : أتمثلت أم قلت ؟ قال : بل قلت ، فقال : حلوا عنه كبله ، فلما حل عنه أنشأ يقول :

أما ترى عفو أبي عامر لا بد أن تتبعه منـه
كذلك الله اذا عفا عن عبده أسكنه الجنـه

فأمر المنصور بإطلاقه وسوغه المال وأبرأه من التبعة فيه » .

وهناك قصص ونوادر كبيرة تروى عن المنصور في هذا الصدد ، وكلها تشهد بذكائه وبراعته وحزمه ، منها قصة تاجر الجواهر الذي أتى المنصور وعرض عليه بضاعته النفيسة ، فاختار المنصور بعضها وأعطاه صرة من المال ، ومضى التاجر في حال سبيله ، فمر على نهر وكان اليوم قائظاً ، فنزل ليستحم في النهر ووضع ثيابه مع تلك الصرة على الشاطئ ، فمرت حداة فحسبتها طعاماً فأخذتها ، وحزن الرجل كثيراً ، ولما رآه المنصور سألته عن سبب تغيره فحكى له التاجر القصة ، فسأله المنصور عن الاتجاه الذي أخذه الطائر ، فقال : مرّ شرقاً على سمت هذا الجنان الذي يلي قصرك ، يعني منطقة الرملة . فأمر المنصور شرطيه باحضار شيوخ تلك الناحية ، فلما حضروا سألهم بالبحث عن تغير حاله من الاقلال الى اليسر سريعاً دون تدريج فتناظروا في ذلك ثم قالوا : « يا مولانا ! ما نعلم الا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ويتناولون السقي بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة » .

فأمر المنصور باحضاره من الغد ، وقال له : سبب ضاع منا ، وسقط اليك ، ما فعلت به ؟ فقال : هو ذا يا مولاي ! وأخرج الصرة بعينها وقال : لقد سقطت أمامي وأنا أعمل في جناني فقلت : أن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاحترزت بها ، ودعنتني فاقتني الى أخذ عشرة دنائير ، وقلت : أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح بها . فصاح التاجر وهو يكاد يطير فرحاً : قد وهبتها له . فقال له المنصور : نحن أولى بذلك منك ولا ننقص عليك فرحتك ، ولو كان بدأنا باعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء . ثم أمر للتاجر بعشرة دنائير عوضاً عن دنائيره ، وللجنان بعشرة دنائير ثواباً لتأنيبه عن افساد ما وقع بيده . وانصرف التاجر بماله وقد عاوده نشاطه ، وقال : « والله لأبشّن في الأقطار عظيم ملكك ، ولأبينن انك تملك طير عملك كما تملك انسا (٢٤) » .

والقصة التالية تدل على حزم المنصور ودهائه :

« أرسل فارساً في ليلة شديدة البرد لمراقبة الطريق العام ، وأمره أن يأتيه بكل من يمر ، وبعد فترة من وصول الفارس مر شيخ كبير يركب حمارة . وأراد الفارس أن يتركه يمر لولا أن فكّر في قول المنصور فجاء بالشيخ ولما فتشه المنصور وفتش بردة الحمار وجد رسائل من النصاري الذين عنده الى اخوانهم يخبرونهم عن الطرق التي يجب أن يتبعوها لغزو أرض الأندلس المسلمة » .

□ أعمال المنصور العمرانية :

من أهم أعمال المنصور العمرانية ، بناء مدينة الزاهرة ، وقد بناها سنة ٣٧٠ هـ ٩٨٠م في شمال شرق قرطبة . وانتقل اليها المنصور ونزلها بخاصته وعامته ، وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وجعل منها محور سياسة الأندلس ، واقطع ما حولها للوزراء والكتاب . وقد اتصلت أرياضها بأرياض قرطبة ، وعطل قصر الخليفة من جميعه وصيره بمعزل عن سامعه ومطيعه وسد باب قصره عليه واشتد ملك المنصور بالزاهرة . وقال فيه « صاعد اللغوي » (٢٥) .

يا أيها الملك المنصور من يمن	والمبتني نسباً غير الذي انتسب
لغزوة في قلوب الشرك رائعة	بين المنايا تناغي السمر والقضب
أما ترى العين تجري فوق مرمرها	زهاؤاً فتجري على أحقادها الطربا
أجريتها فطما الزاهي بجريتها	كما طموت فسدت العجم والعربا
تخال فيه جنود الماء رافلة	مستلثمات تريك الدرع واليلبا (٢٦)

ومن منشآته أيضاً قنطرة قرطبة التي بناها على الوادي الكبير سنة ٣٨٩ هـ وقنطرة استجه على نهر شنيل ، ثم قام بتوسيع جامع قرطبة (٢٧) وكان يعمل فيه بنفسه ، كما استخدم الأسرى من النصاري في البناء ، وجعل من نواقيس النصاري التي غنمها من كنيسة شنت ياقوب سنة ٣٨٧ هـ ثريات لزيادته .

□ سياسة المنصور الخارجية وعلاقته بملوك أوروبا واسبانيا :

كانت سياسة المنصور الخارجية امتداداً لسياسة أسلافه الخلفاء الأمويين فقد أبقي على العلاقات الطيبة مع الدولة البيزنطية وتبادل الهدايا والرسل مع ملوكها . وكان الامبراطور البيزنطي في ذلك الوقت هو باسيل الثاني .

كذلك كانت علاقته جيدة مع أوتو الثالث ملك ألمانيا وإيطاليا والامبراطورية الرومانية المقدسة . كذلك توطدت العلاقات بين المنصور وبين بعض ملوك اسبانيا مثل « ملك نبره » سانشو اباركا وتزوج ابنته . أما ملوك اسبانيا الآخرون فقد نالوا على أيدي المنصور الهزائم الكثيرة واضطروا آخر الأمر الى عقد اتفاقات معه .

□ وفاة المنصور :

بعد هذا العز الشامخ والمجد الباذخ الحافل بالقوة والعزة والكرامة هوت هذه القمة من عليائها وانطفأ المشعل الذي حمله المنصور فمات وهو يؤدي فريضة الجهاد في ٢٧ رمضان

سنة ٣٩٢ هـ ١٠٠٢ م وهو في الخامسة والستين . فخرج الناس يصيحون في الشوارع
 ٠٠٠ مات الجلاب ٠٠٠ مات الجلاب .
 ودفن في مدينة سالم مع التراب الذي جمعه من ثيابه ووجهه في غزواته الكثيرة ،
 وكتب على قبره :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيون تراه
 تا لله ما يأتي الزمان بمثله أبداً ، ولا يحمي الثغور سواه (٢٨)

وجاء بعد المنصور ابنه عبد الملك وكانت سيرته حسنة فأحبته الرعية ولكنه توفي بعد
 فترة قصيرة فحكم أخوه عبدالرحمن شنجول وأساء السيرة وأجبر هشام المؤيد على إعطائه
 ولاية العهد . فثار به الجيش وقتله .
 وبذلك كانت نهاية الدولة العامية .

الحواشي والهوامش :

- ١ - علي الجارم ، قصة العرب في اسبانيا ص ١٤١ .
- ٢ - الدكتور حسن ابراهيم حسن - تاريخ الاسلام ج ٣ ص ١٧٩ .
- ٣ - الدكتور أحمد مختار العبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٣٦ .
- ٤ - ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٥ .
- ٥ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٧٨ . ابن الحسن النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس ص ٨١ .
- ٦ - أحمد مختار العبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٧٣ .
- ٧ - الدكتور حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام ج ٣ ص ١٨٠ .
- ٨ - ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ص ٣٧٣ .
- ٩ - الدكتور العبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٣٧ .
- ١٠ - النباهي المالقي ، تاريخ قضاة الأندلس ، ابن عذارى المغرب ج ١ ص ٣٧٧ .
- ١١ - المغرب المرجع نفسه .
- ١٢ - المغرب المرجع السابق .
- ١٣ - المغرب السابق ص ٣٨٢ .
- ١٤ - ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٦ .
- ١٥ - ابن عذارى ، المغرب ج ١ .
- ١٦ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٧٧ .
- ١٧ - ص ٨١ وما بعدها .
- ١٨ - أحمد مختار العبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٤٢ .
- ١٩ - الأمير شكيب ارسلان ، الحلل السندسية ج ٢ ص ٥٨ .
- ٢٠ - الدكتور أحمد مختار العبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٤٤ .
- ٢١ - ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ .
- ٢٢ - ص ٣٩٥ وما بعدها .
- ٢٣ - ابن عذارى ، البيان المغرب ص ١٩١ - ١٩٢ .
- ٢٤ - المقرئ ، نفح الطيب ج ٢ ص ٩٦ وما بعدها .
- ٢٥ - ايليا - الترسي .
- ٢٦ - الدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس .
- ٢٧ - النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس ص ٨٢ .

مراجع البحث :

- ١ - النباهي المالقي ، تاريخ قضاة الأندلس ، مركز الموسوعات العالمية ، بيروت .
- ٢ - ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، الأجزاء ١ - ٢ .
- ٣ - أبو مروان ابن حيان ، المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، تحقيق عبدالرحمن علي الحجري ، دار الثقافة ، بيروت .
- ٤ - أبو مروان ابن حيان ، المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، تحقيق وتقديم الدكتور محمود علي مكي ، القاهرة ١٩٧١ م .
- ٥ - أحمد ابن محمد المقرئ التلمساني ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب .
- ٦ - ابن خلدون ، ديوان العبر ، الجزء ٢ .
- ٧ - الأمير شكيب أرسلان ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، الناشر محمد المهدي الجبالي ، فاس .
- ٨ - أحمد أمين ظهر الإسلام ، جزء ٣ ، مكتبة النهضة المصرية .
- ٩ - ابن الخطيب ، الإحاطة + أذهال الأعلام ، نشر ليفي برونفسال ، القسم الخاص بإسبانيا .
- ١٠ - علي الجارم ، قصة العرب في إسبانيا ، دار المعارف بمصر .
- ١١ - الدكتور حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، جزء ٣ ، العصر العباسي الثاني ، مكتبة النهضة المصرية .
- ١٢ - مفآخر البربر لمؤآلف مجهول ، نشر ليفي برونفسال .
- ١٣ - ابن بسام ، الذخيرة ، جزء ٤ .
- ١٤ - محمد عبداللآه عنان ، دول الطوائف .
- ١٥ - الدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، قرطبة ، حاضرة الخلافة في الأندلس ، جزء ١ دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧١ م .
- ١٦ - الدكتور أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٧٢ م .

